تأثير الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية في العصور الوسطى

للدكتور كمال فريد

مدرس آداب اللغة الفرنسية وحضارتها بجامعة عين شمس

أتاح لى قيامى بتدريس الآداب والحضارة الغربية بالجامعات المصرية فرصة طيبة للبحث فى مدى تأثير الحضارة الشرقية وفضلها على العالم الغربى فى العصور الوسطى فى مختلف الميادين العلمية والفنية .

كان البحر الأبيض المتوسط همزة الوصل بين الغرب والشرق ، وقد لعبت الأندلس والبندقية وجزيرة صقلية دورا كبيرا فى نقل التراث العربى الى الغرب . ففى العصور الوسطى أنشىء كرسى للغات الشرقية بجامعة باريس ، وترجمت عدة مؤلفات عربية فى علم الفلك والطب والرياضة كما ترجم مؤلف فى علم الضوء للخازن الى اللغة اللاتينية حوالى سنة ١٢٠٠ م وقد أفاد العالم الفلكى الألمانى المعروف كبلر من هذه الترجمة .

أنشىء فى القرن الثانى عشر معهد للمترجمين فى توليدو قام بترجمة مؤلفات أشهر الكتاب العرب الى اللغة اللاتينية وكان نجاح هذه الترجمات عظيما ، فقد كشفت عالما جديدا للغرب ، وقد ازدادت هذه الترجمات خلال القرون ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . ولم يقتصر الأمر على ترجمة مؤلفات العلماء العرب الى اللاتينية بل أيضا مؤلفات العلماء اليونانيين التى سبق ترجمتها الى اللغة العربية وكانت متداولة فى العالم الاسلامى . وكان للفكر الاسلامى وتفسيرات ابن رشد التى كانت تدرس فى جامعة باريس الفضل فى نشر علوم ما وراء الطبيعة (ميتافزيقا) وطبيعة وعلم أخلاق أرسطو فى أوروبا اذ كان لابن رشد أتباع كثيرون فى باريس . وكان الشرق العربى رمز العلم يؤكد ذلك ارتداء

البرت الأكبر الزى العـربى عند حضـوره الى باريس فى سـنة ١٢٤٥ ليلقى فى الجامعة محاضرة عن أرسطو ، وقد كان العرب يشغلون دائما بال الفرنجة اذ يقعى علينا « آچينهارد » مؤرخ شرلمان فى القرن التاسع أن سكان الجبال فتكوا فى أغسطس سنة ٧٧٨ برجال احـدى حاميات جيش شرلمان أثناء عودتهم من شمال أسبانيا مع زعماء ثلاثة كان يدعى أحدهم رولان ، فاذا رجعنا الى الملاحم الشعرية التى قد يكون لها سـند ضعيف من التاريخ ، والتى لاشك أنها من نسج خيال الشـعراء الذين ينسبون الى الأوروبيين البطولات الوهمية التى لا يؤيدها التاريخ نجدهم يروون عن هذه الحادثة أن العرب كانوا يتفوقون على حامية شرلمان مئات المرات وأن رولان هـذا مع صحبه كانوا عشرين ألفـا من الجنود الفرنسيين باغتهم أكثر من مائة ألف عربى مسـلحين يقودهم اثنا عشر قائدا . فشاهد تفوقهم « أوليڤييه » من فوق التل فأسرع الى رولان يطلب منه أن ينفخ فى نفير الحرب لينبه شرلمان الذى وصـفوه بأنه ذو اللحية البيضاء ، والبالغ من العمر مائتى سنة ، مع أنه كان فى السادسة والثلاثين من عمره وقت هذه المعركة ، وذلك لكى يعود شرلمان بجيشه . ثم يروى الشعراء أن رولان رفض فى الأول تنبيه شرلمان ، ثم عاد ونبهه ، وأنه لما التحم العرب بالفرنسيين لم يبقوا منهم سوى ستين رجلا التفوا حول رولان الذى يدعون أنه انتصر على ابن الحاكم العربى ، وقطع يد أبيه بسيفه . ويختمون الملحمة بأن رولان مات فى النهاية غالبا لا مغلوبا ، ويتضح من هـذا الادعاء الخيالى أن العرب كانوا يشغلون دائما بال الفرنجة .

وكان من ضمن العوامل التى أثرت على شتى وسائل الزينة ، وكان لها أثر واضح على الذوق الأوروبى عامة والفرنسى خاصة اقامة الملك لويس التاسع فى كل من فلسطين ومصر . وقد جمع فردريك الثـانى والفونس الخامس حولهما علماء كثيرين من العرب وكانا يعيشان عيشة ترف ذات طابع شرقى . وكان ملوك ونبلاء الغرب يقتنون المصنوعات العربية الاسـلامية ، فاذا اطلعنا على قوائم مقتنيـات الملك شـارل الخامس نجد أنه ورد فيهـا ذكر الأوانى الزجاجيـة

والمنسوجات والمعادن المصنوعة فى البلدان الاسلامية والمنسوبة الى دمشق وغيرها من المدن ، ولو أنه لا يمكننا أن نجزم بأن كل ما ذكر فى هذه القوائم صنع فى الشرق ، اذأن العظماء والنبلاء فى العصور الوسطى أعتادوا أن ينسبوا الى الشرق صنع كل شىء غريب لتكسبه هذه التسمية قيمة كبرى لما توحى به من روعة وجمال الفن فى عصر الخلفاء .

واذا كانت هنالك بعض المبالغة الا أنه قد ثبت أن الغرب كان يستورد المنسوجات الحريرية من دمشق وبغداد والموصل والمنسوجات الصوفية السوداء والحمراء المزينة برسوم تمثل العصافير ذات اللون الذهبى أو الأزرق من أنطاكية و « التفتاه » من بلاد فارس والديبكة (البيكة) المزينة بالزهور الذهبية اللون من الاقليم المصرى ، وكانت الاسكندرية مركزا هاما لتصدير مختلف البضائع الى البلاد الغربية التى كانت تستورد علاوة على المنسوجات ، السجاجيد من آسيا الصغرى وسوريا ومصر والتركستان والقوقاز ، وقد شاهدنا رسمها فى بعض اللوحات القديمة المحفوظة فى البلدان الغربية .

ولم يلبث الغربيون أن أنشأوا بعد ذلك مصانعا محلية لانتاج الأقمشة المختلفة ذات الطابع الشرقى . ولقد أجمعت عدة نصوص على ازدهار الصناعات فى المدن الأندلسية التى اشتهرت بالأقمشة الحريرية المذهبة التى أثارت اعجاب الجميع ، وكانت فى البداية تنقش بعض الأشكال الخيالية على المنسوجات ولكنها اتجهت الى الرسم التجريدى لأنه أكثر توافقا مع الاسلام . وقد انتشرت مثل هذه المصانع فى بالرمو بايطاليا لتغذية الأسواق الأوروبية الهامة بالأقمشة المصنوعة على النمط الشرقى . وكان يقوم بالعمل فى هذه المصانع بعض العمال العرب الى جانب اليونانيين والايطاليين الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على تقليد النماذج البيزنطية والاسلامية ، ولكن لم يستمر الحال طويلا فى هذه المصانع لرحيل العمال العرب الى جنوة وفلورنسا والبندقية على أثر حصول اضطرابات فى المدينة حوالى نهاية القرن الثالث عشر . وقد أنشأت باريس أيضا صناعات عربية أسوة بباقى المدن الغربية الكبرى . ومما يجدر بالذكر أن المواد

الأوليـــة كانت ترد من الشرق . ولم يقتصر الأمر على الأقمشـــة بل امتد الى صناعة الخزف وصياغة الذهب . وهكذا يتبين لنا جليا أن الغرب افتتن بالشرق وصناعاته وحاول تقليدها نظرا لشدة اعجابه بها .

وقد أثر الفن العربى على الفن القوطى وخاصة فى محاولة تقليد الخط الكوفى الذى ظهر فى بعض الكتب الدينية الغربية . وكان الأوروبيون يكتبون أحيانا سورة قرآنية مقلدين الخط العربى على المصنوعات ذات الطابع الشرقى . وقد أكسب الخط الكوفى النقوش التى كانت تعتمد على حرفى الألف واللام طابعا خاصاً .

ويمكننا أن نؤكد اندماج الفن الاسلامى فى حالات كثيرة مع الفن القوطى اذ أنه بعد الخط الكوفى لاحظنا العنـــاية بنقش الزهور والأشـــكال الهندسية المتشابكة التى أبدع فيها المهندسون المسلمون التى زينت المخطوطات القوطية . وهاهو الفنـــان الشهير « ليونارد دى فنشى » قد اقتبس الكثير من روعة الفن الشرقى وأشكاله المتشـــابكة . وكان من بين وســـائل الزخرفة رسم الحروف متشابكة بعضها بخط سميك والبعض الآخر بخط رفيع ، وقد ظهر ذلك فى بعض الكتب الى جانب الزهور . واستعملت وسيلة أخرى للزخرفة برسم نصف ورقة الشجر ذات الحد (المدببة) المنتشرة فى الشرق الاسلامى أو مجموعة من أوراق الشجر والزهور معا ، وكانت هذه الوسيلة مستخدمة فى الشرق لتزيين القرآن الكريم والخزف الفارسى والنقش على العاج فأدخلت فى الفن القوطى ، ويظهر التشابه العظيم بمقارنة بسيطة بين بعض نسخ من القرآن الكريم المزينة فى القرن الثانى عشر وبين بعض الصناعات الغربية فى العصور الوسطى .

واذا تطلعنا الى الجامات « الايقونات » التى تلعب دورا كبيرا فى الاطارات القوطية نجدها مقتبسة أيضـــا من الشرق ، فنرى مثلا أن الدوائر والمنـــاظر المنقوشة على العاج والنقود مقتبسة من الأندلس العربى ، ونجد أن الاطارات الجميلة المصنوعة فى القرنين العاشر والحادى عشر منقوشة على العلب الأندلسية

والمنسوجات الشرقية . ولذا يمكننا أن نقرر أن هندسة الجامات كانت متشابهة فى الشرق والغرب . وأن عصر النهضة قد أعجب بها وأقر أنها منقولة عن الفن الاسلامى . وهكذا يتضح لنا أنه كان لانتشار الزخرفة العربية الاسلامية تأثير كبير على الفن الغربى فى عدة دول أوروبية كايطاليا وفرنسا وألمانيا ، كما كان لفن العمارة العربى تأثير عظيم على الفن القوطى فى المبانى الدينية والقصور والحصون نتيجة للحروب الصليبية خاصة . وقد سرت أيضا روح الفن العربى من صقلية الى أنحاء أوروبا .

فاذا انتقلنا أخيرا الى الموسيقى العربية نجد أنهـا أثرت على الموسـيقى الغربية باعتراف كبار الموسيقيين الأوروبيين فى القرن الثالث عشر . ونلحظ جليا أثر الأنغام والألحان العربية فى الموسيقى الاسـبانية بوجه خاص واطلاق أسماء بعض الآلات الموسيقية العربية على الآلات الغربية فسمى العود « لوت Luth » والقيثارة « جيتار guitare » والرباب « ربيك rebec » . وقد أثر الشعر الغنائى العربى العـاطفى على شعراء جنوب فرنسـا المرتزقين بآلاتهم الموسيقية حتى أنهم سموا « بالطروبادور troubadour » نسبة الى دور الطرب العربية .

وخلاصة القول أن الحضارة الشرقية أثرت تأثيرا مباشرا على الحضارة الغربية فى العصور الوسطى .

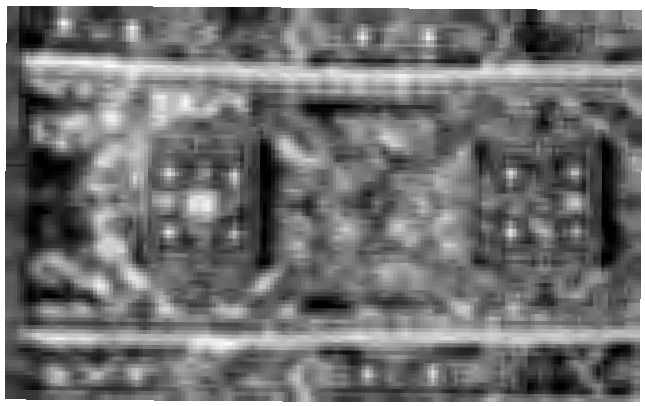

قماش اندلسى مغربى مطرز بمتحف كلونى بفرنسا
يرجع تاريخه الى العصور الوسطى

سفر الرؤيا المزين بالخط الكوفى بسان سيفر بفرنسا ، ويرجع تاريخه الى سنة ١٠٢٨ م تقريبا

كتاب مزخرف بالخط الكوفى كان لدى الملك لويس التاسع ، يرجع تاريخه الى سنة ١٢٥٤ م تقريبا

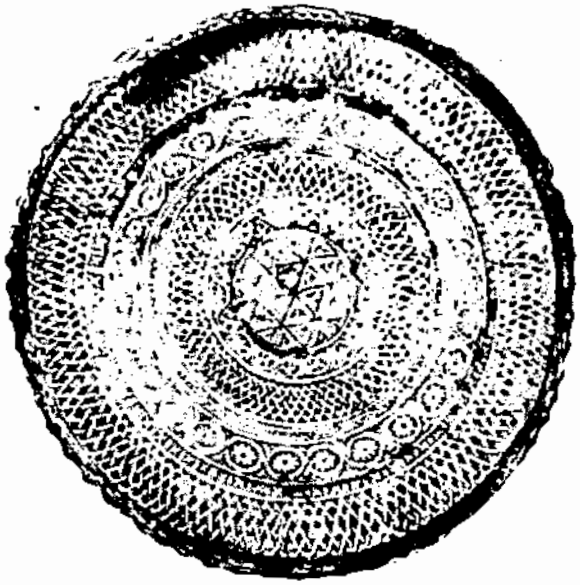

طبق فاكهة فارسى منقوش عليه الزهور والأشكال الهندسية المتشابكة من القرن الحادى عشر

كتاب بلجيكى مرسوم عليه الأشكال الهندسية المتشابكة ، يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر

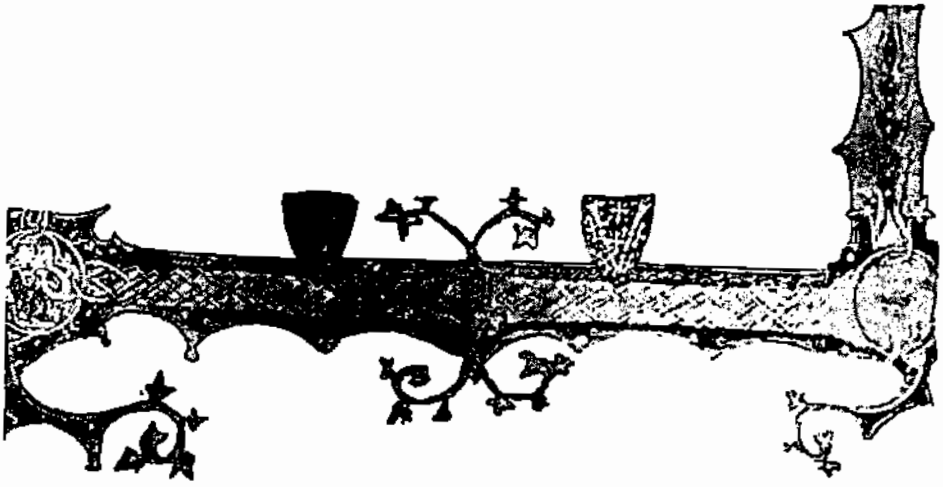

كتاب انجليزى مزين بالأشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر

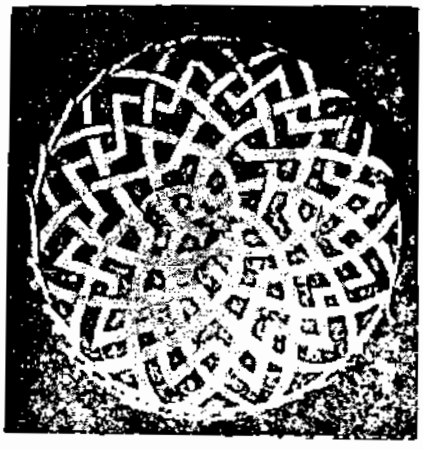

كاس (سلطانية) مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة صنع فى قاشان ببلاد فارس فى القرن الثالث عشر

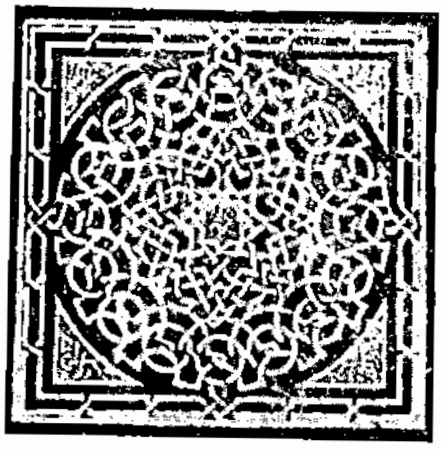

قرآن مغربى لمولاى زيدان .. مزخرف بالاشكال الهندسية المتشابكة ، يرجع تاريخه الى العصور الوسطى

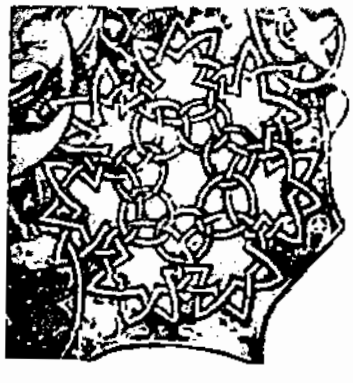

كتاب مزامير مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر

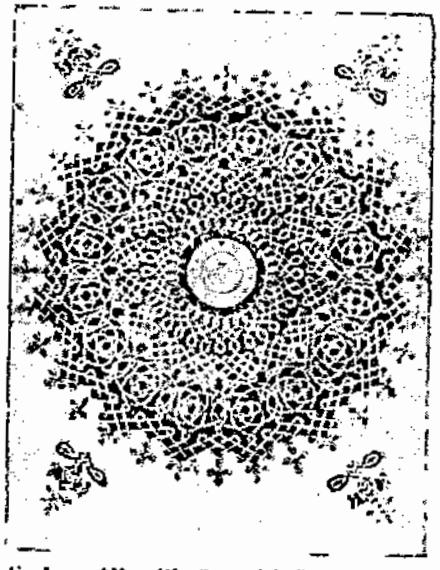

اشكال متشابكة للفنان الايطالى الشهير ليونارد دى فنشى

زخرفة من العصر العباسى معتمده على نصف ورقة الشجر ذات الحد ببلدة سامره يرجع تاريخها الى حوالى سنة ٨٣٦

خطوط فارسى مزين بورق الشجر يرجع تاريخه الى سنة ١٣٠٠ م

عاج منقوش به أنصاف أوراق الشجر بقرطبة من القرن الحادى عشر

كتاب دينى بمتز بفرنسا مزين بأنصاف أوراق الشجر من أواخر القرن الثالث عشر

خطوطات خاطة باهداب كالسجاجيد الشرقيه

نسخة من القرآن الكريم مزخرفة فى سنة ١١٨٦ ..

كتابان من الكتب الدينية بمدينتى لوسون وبيلفيل بفرنسا من القرن الرابع عشر

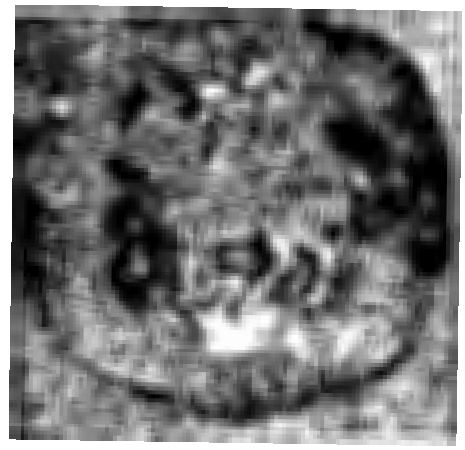

جامة منقوشة على منسوجات شرقية من القرن
الحادى عشر موجودة بمدينه دورهيم بانجلترا

جامات منقوشه على منسوجات المانية بدير ايزينهاجن من النصف الثانى
من القرن الثالث عشر

جامات منقوشة على النحاس بالموصل يرجع تاريخها الى سنة ١٢٣٨ تقريبا

جامات منقوشة على منسوجات المانية بدير ايبسدورف من اواخر القرن الثالث عشر
واوائل الرابع عشر

بقايا الحصن الذى شيده ريتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٦ م ، واتم بناءه
الملك فيليب أوجست بعد استيلائه عليه فى سنة ١٢٠٤ م ، ويتجلى فى هذا
الحصن تاثير الحصون الفلسطينية